مداخلة أ. د/ جعفر عبد السلام
الأمين العام لرابطة الجامعات الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد وآله وصحبه وبعد،

فيسعدني أولا أن أحيي الجميع بتحية الإسلام فالسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته وأقول إن جامعة الأمير عبد القادر بقسنطينة رمز للكفاح و الجهاد لشعب الجزائر الحر، المحافظ دائما على هويته، شعب المليون والنصف المليون شهيد،

هذا الشعب الذي انطلق جهاده أساسا، جاء من هنا من علماء قسنطينة، ومن علماء الجزائر بشكل عام.

أبدأ بتوجيه تحية إلى الشهداء وإلى الأحياء أيضا، الذين جاهدوا في سبيل توطيد عرى الإسلام في هذه البلاد، وفي سبيل هذه الدولة العظيمة الذين أرونا دروسا في الفداء وحب الأوطان، – وأيضا وقبل كل شيء – في حب الإسلام والدفاع عنه، وإثبات الهوية الإسلامية لشعوب العالم الإسلامي.

أقول في هذه المناسبة أنني شخصيا من المهتمين جدا بأمر هذه الصحيفة، وقد لقيت الفكرة قبولا لدى الأساتذة الكرام أ.د/ عبد الله بوخلخال و أ.د / إسماعيل سامعي وكل السادة الذين كلمناهم في هذا الموضوع واتفقنا على أن تكون صحيفة المدينة محل هذه الندوة في جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية. فلماذا ؟

لأن بلادنا بشكل عام وقعت فريسة العدوان والطغيان قوى البغي الداخلية والخارجية، ومثل هذه الوثائق إنما تذكرها، ودراستها تكون في مصلحة الأمة الإسلامية لأكثر من سبب.

في الواقع هذه الصحيفة تعلمنا دروس عديدة – ومنها على سبيل الذكر لا الحصر– الدرس الأول جاء عندما وضعت هذه الصحيفة من قبل الرسول عليه الصلاة

والسلام الذي دعا كل سكان المدينة من المهاجرين والأنصار واليهود والوثنيين وكل الناس ، فالتف حوله الجميع في السنة الأولى للهجرة ، وحيث إنه لم تكن هناك أماكن كثيرة تصلح لتجمع الناس فرشح فينا دمنة بنت الحارث اليهودية واجتمعوا فيه، فقرأ الرسول ﷺ عليهم الصحيفة وناقشهم بها، وهو الدرس الأول الذي أذكره وأبلغه لمن يقومون بإعادة بناء الدولة، وإعادة بناء الأمة في بلادنا الآن بعد أن تعرضت لانهيارات عظيمة، فالرسول ﷺ لم يهمل أي شخص من سكان المدينة، ولم يهمل أي اتجاه من الاتجاهات، ولم يكتف بالمسلمين وبالمهاجرين والأنصار وإنما دعا الجميع.

دعا اليهود بكل بطائنهم ودعا أيضا الوثنيين، وقد أجزى لنا محمد حميد الله خدمة عندما ذكر في كتابه من كان مع الرسول ﷺ في المدينة، وأيضا عندما رتب أمور الصحيفة و ذكر 11 بطنا يمثلون شعب المدينة ولم يهمل أحدا. الكل يجب أن يجتمع لأخذ رأيهم في طريقة بناء الدولة وأسلوب قيام هذه الدولة، فنحن أمام عقد اجتماعي حقيقي ليس كالعهد أو العقد الذي قال به بعض العلماء منهم هوبز: أن الناس اجتمعوا واختاروا أقواهم ..." . النظرية الإنجليزية، وجل الذين قالوا إن الأمة تعاقدت مع بعضها البعض لإقامة المجتمع السياسي الذي هو الدولة، وحتي جان جاك رسو وكل الذين قالوه افتراضات لا أساس لها من الواقع. أما الرسول ﷺ فقد دعا الناس ولم يهمل كما قلت لا أهل الكتاب ولا الوثنيين فكلهم كانوا من شعب المدينة، وأيضا في صياغة العهد وفي هذه النقطة بالذات قال العهد أن المسلمين من

الأنصار والمهاجرين ومن تبعهم ولحق بهم وجاهد معهم يمثلون أمة واحدة من دون الناس، وهذا بعد أن ذكر محمد حميد الله 11 بطنا الذين كانوا يوجدون بالمدينة، وقد جاءت هذه الفقرة لتأكد أن المسلمين هم من الأنصار والمهاجرين ومن تبعهم ولحق بهم وجاهد معهم وأقر بما جاء في هذه الصحيفة . فهل رأيتم نضجا سياسيا في الوقت الحاضر بهذا الحجم كما كان من الرسول ﷺ.

إذن هو الدرس الأول من دروس هذه الندوة الخاصة بالصحيفة التي قال عنها بعض المستشرقين أنهم وجدوا فيها القيم من السماء، وهو السير وليام مولر، وأنا أشاركه في هذا لأننا نجد في هذه الوثيقة الدستورية حرية متكاملة في هذا الوقت المبكر من التاريخ. هذا شيء عجيب حيث لم يكن أحد يحلم به من هؤلاء الباحثين، لذلك قال: أنه وجد القيم في وقت غير عادي بعيد الدرس الأول إذ عدم تهميش الناس عند صياغة الأمور الأساسية التي تتصل بأمور الدولة.

وما يتصل بالصحيفة أيضا هو مجمل الحقوق و الواجبات التي وجدت بها، فنحن في القرن الأول للهجرة/ السابع الميلادي و الدساتير لم تأت بعد ذلك إلا بقرون. بعد الثورة الفرنسية أو بعد الثورة الأرستقراطية في إنجلترا وإعدام الملك وإصدار العهد الأعظم، وقبل هذا بكثير وضع النبي ﷺ هذه اللبنات في إقامة الدولة تضمنت حرية العقيدة في دولة المفروض أنها دولة دينية لكنها هي دولة المدينة باعتراف الرسول ﷺ بكل طوائفها طالما آمنوا بما جاء في الصحيفة، ودافعوا عن المدينة. هذا العمل يثبت أركان أساسية نبحث عنها الآن في فقه المواطنة، وفي فقه العقد الاجتماعي وغيرهما. لكن أقول أن العقد الاجتماعي الذي وضع في القرن الأول من الهجرة / 7م عقد حقيقي ليس مفترض كعقد مولر، وهوبز، وروسو، وأن الناس كلهم اجتمعوا إلى الرسول ﷺ و أقروا بما جاء في هذه الصحيفة، ومن الصور البليغة

والعظيمة والعجيبة التضامن الاجتماعي في المدينة في التعويض عن الأموات و القتل حيث وضع مبدأ في الإسلام ليس فيه دماء تهدر مثل القتل الخطأ الذي لا يعاقب عليه. وفي الإسلام الدماء لا تهدر لا بد من التعويض عنه بالقصاص أوالدية، وإذا كان الفاعل بالجريمة لا يقدر على دفع الدية، فإن قبيلته أو مجموعته تتحمل معه هذه الدية المهم أنه لابد أن تجبر الدماء في الإسلام، وأيضا في هذه الصحيفة نجد أبعادا عديدة لما يتصل بالتكافل الاجتماعي ولما يتصل بحرية العقيدة التي لها في أكثر من موضع، وتتصل بأسس الحياة التي تقررها الدساتير الحديثة، فقد وجدت في هذه الصحيفة عندما كنت أبحث أساسا عن فكرة الإقليم، والإقليم الآن ركن أساسي من أركان الدولة، والرسول ﷺ حرص على أن تكون دولة المدينة إقليما محددا، وحرس على ذلك وهذا الأهم. وهنا أريد أن أفتح الموضوع لا أن أتحدث عن تفاصيله، فشعب المدينة كافح الرسول محمد صلى الله عليه و سلم من أجله في سبيل أن يكون شعبا قويا متحدا موحدا متماسكا لا تؤثر فيه أية أحداث، بل نجد المثال الجيد، والخبرة في هذه الزاوية بالذات، وأكاد أقول أن الرسول ﷺ قضى عمره كله في سبيل اقتلاع جذور العصبية، وتوحيد الناس على كلمة سواء وإقرار منظومة الحقوق والحريات التي نجدها الآن مبعثرة في كثير من الوثائق. نجدها موجودة في هذه الصحيفة .

إذن فنحن أمام وثيقة .أمام مسألة في غاية الأهمية والكل و أنا أول من يستمع إنشاء الله إلى الدراسات التي ستلقي حول هذه الصحيفة، ولعلنا نرسلها إلى قادة الدول وأولوا الرأي في كل مكان ليعرفوا أن الرسول ﷺ قد أجاد فن بناء الدولة بإصداره هذه الصحيفة و موافقة المسلمين عليها .

نقل وتصحيح أد. إسماعيل سامعي